

تمثيلات الأنا والآخر في الرواية النسوية الجزائرية "الممنوعة" لمليكة
مقدم أنموذجا.

**Representations of the self and the other in the
Algerian feminist novel "The Forbidden" by
.Malika Moghaddam as an example**

د- نبيلة فراحتية*

تاريخ النشر: 2024/07/31	تاريخ القبول: 2024/02/04	تاريخ الإرسال: 2024/01/01
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

أكد نسق الذات والآخر حضوره في الابداع السردي المعاصر، تجلى في ثنائيات متناقضة من بينها ثنائية (الشرق / الغرب)، (المستعمر / المستعمر)، (المركز / الهامش) (المرأة / الرجل)، مثيرة بذلك عديد من التساؤلات حول الذات والآخر وعن طبيعة العلاقة وأبعادها الثقافية المختلفة، وعبر رؤية سردية ونقدية يحلل الكاتب الأوضاع ويضع المتلقي أمام عديد من التساؤلات التي تخص الذات والآخر الهوية، الوطن.

لذا نحاول من خلال هذه الدراسة البحث في علاقة الذات الأنثوية بالآخر، كان فردا أم جماعة من خلال رواية الممنوعة لمليكة مقدم.

الكلمات المفتاحية: الأنا، الآخر، الهوية، الممنوعة، مليكة مقدم.

* مخبر الدراسات الأدبية والنقدية، البليدة 2، الجزائر en.ferahtia@univ-blid2.dz

Abstract: times new roman I2 }interline 1

The pattern of self and other has confirmed its presence in contemporary narrative creativity, manifested in contradictory dualities represented in the duality: (East/West) (colonizer/colonized) (center/margin) (woman/man), thus raising many questions about the self and the other and about the nature of the relationship. And its various cultural dimensions, and through a narrative and critical vision, the writer analyzes the situation and puts the recipient before many questions related to the self and the other, identity and homeland.

Therefore, through these research papers, we attempt to investigate the relationship between the female self and the other, whether an individual or a group, through the novel The Forbidden by Malika Moghadam

.Key words: The ego, the other, the identity, the forbidden, Malika Moghadam

*** **

د/ نبيلة فراحتية en.ferahtia@univ-blid2.dz

1- مقدمة:

يمثل الخطاب السردي النسائي الجزائري جنساً أدبياً مستحدثاً عكس إبداع المرأة وأفكارها، ورغباتها وطموحاتها في السير بالكتابة النسائية للريادة والتميز في مقابلما قدمه الآخر (الكاتب والأديب..)، وللحديث عن التجربة الروائية النسائية في الجزائر نلاحظ حضوراً مميزاً بأقلام أبدعت في الأشكال والمضامين، مُحملة بذات أنثوية طامحة للتخلص من أشكال القهر والظلم والإقصاء، مازجة بين المتخيل والسيرة الذاتية، متحررة من قيود المجتمع، متمردة عليه، كاشفة ستار المسكوت عنه في المجتمع الجزائري، والخوض في الممنوع، ومن بين الروايات التي صورت علاقة الأنا بالآخر رواية "الممنوعة" لمليكة مقدم.

ولما كانت الكاتبة قد استثمرت تقاطع الذات مع الآخر في قضايا متعددة في روايتها عبرت خلالها عن فترات زمنية متفاوتة بين مرحلة الطفولة والشباب، سنحاول من خلال هذه الدراسة البحث في تلك القضايا بتسليط الضوء على ثنائية الذات والآخر وأثرهما في الهوية والانتماء بالإجابة على التساؤلات التالية:

- كيف تجلت علاقة الأنا بالآخر؟
- هل تستطيع الذات أن تثبت ذاتها في ظل قيود الجنس الآخر من جهة، والمجتمع من جهة أخرى؟
- ما علاقة الصّحراء بهذه الثنائية الضدية؟

وقد وجدنا في التحليل الثقافي آلية منهجية لهذه الدراسة للإجابة على الإشكالية.

2. الرواية النسوية كتابة الذات:

تعددت المصطلحات حول تسمية الكتابات النسوية أو أدب المرأة (نسائي - نسوي - أنثوي) ومن بين الذين تطرقوا لهذه المصطلحات "حسام الخطيب" حيث يقول: «تثير المصطلحات الدارجة مثل الأدب النسائي وأدب المرأة كثيرا من التساؤلات حول مضمونها وفي الأغلب تتجّه الأذهان عند سماع مثل هذه المصطلحات إلى حصر حدود هذا المصطلح بالأدب الذي تكتبه المرأة»¹؛ أي أنه يحدد مصطلح النسائي بأنه خاص بالتسمية أي الجنس الذي كتب، ولا يقصد به المضمون الذي يتناول موضوع المرأة.

إن الكتابة النسائية هي رغبة في إثبات الكيان والهوية الأنثوية والحضور السّردي للنسائي في السرد الجزائري، وتجاوز حدود القهر والتهميش، "وهكذا تصبح الكتابة نوعاً من الخلاص، ويصبح الاستمرار فيها رغم ما يضمنه من عذابٍ وضني نوع من توسيع دائرة الخلاص، وهكذا أيضا تشرع الكتابة لنفسها، وتجد كل مبررات وجودها وتنهض² للصعود بأدب يثبت حضورها.

ويرى المتتبع للسرد الأنثوي في الجزائر سواء التأليف القصصي أو الروائي أنه وُجدَ منذ فترة الاستعمار لكثته لم ينعم بحرية الإبداع بسبب سيطرة القيم الذكورية، وللحديث عن جنس الرواية فقد تطرقت الروائيات الجزائريات في أعمالهن إلى عدّة مواضيع تنوعت بين (الجسد، الجنس، الموت ...) إضافة إلى موضوع الأزمة – العشرية السوداء- وما تركته من آثارٍ سلبية على المجتمع الجزائري عامة والمرأة بصفة خاصة، تمثل في قهر وظلم واغتصاب.

وتعتبر البدايات الأولى للرواية الجزائرية النسائية هي الرواية المكتوبة بالفرنسية، ويعود سبب ذلك إلى الاستعمار وفرض اللغة الفرنسية في المدارس، والبدايات الأولى كانت مع (فاطمة نايت منصور)، و(الطاوس عميروش)، و(جميلة دباش) - أول امرأة جزائرية تنشئ مجلة مختصة بشؤون المرأة – وكذلك (أسيا جبار)، فيما كانت كتابات (زوليخة السعودي) التي عرفت فيأواخر الستينات صوتا مغيبا عن الساحة الأدبية.

أما عن أول رواية باللغة العربية فتعتبر رواية (في يوميات مدرسة حرة) (لزهور ونيسي) أول رواية، عالجت خلالها قضية المرأة بصفة خاصة، تليها عدة روايات كتبن مواضيع متعددة، وتعانقت ككتابهنمغ لغة الأنثى، وفرض الجنس النسوي في الجنس الأدبي السرد. إلا أن البدايات الروائية كانت قليلة مقارنة بما قدمته الروائيات في المشرق، ولعل تأخر ظهور السرد النسائي في الجزائر كما «أقر أحمد دوغال في كتابه (الصوت النسائي في الأدب النسائي الجزائري المعاصر) تأخر ظهور الأدب النسوي الجزائري مقارنة مع الدول العربية، واعتبر أن الرواية ظلت غائبة حتى سنة 1979 لتطل علينا في يوميات مدرسة حرة، وكان هناك مشروع رواية في أدب الراحلة زوليخة سعودي لكن رحيلها حال دون ذلك»³، فنشرت لها بعض المقالات فقط.

3- التمثيل:

لا يرتبط التمثيل كمصطلح بحقل معرفي معين، بل يمكن أن يتعلق بنظرة الذات للأنثى وللآخر، وتمثيل الآخر فيه يكون برسم صورة له في المخيلة، ذلك أن "عمليات التمثيل

حسب تايلور هي التي تعطي المعنى لصورة الجماعة عن نفسها وعن الآخرين، إن التمثيل بالمعنى الفني يعني أن تتقمص الدور وتتصدر المشهد وتفرض حضورك على الآخرين، وبالمعنى السياسي يعني أن تتحمل المسؤولية للتعبير الصادق عن تمثيلهم⁴، فالتمثيل يرتبط بطرفين ممثلين في الأنا والآخر، وعليه فإنه لا يوجد شك في أن عملية التمثيل من القضايا الثقافية التي ترتبط بمعرفة الآخر الذي أصبح موضوعا للذات العارفة في الدراسات الثقافية.

4- ملخص رواية الممنوعة:

رواية الممنوعة، كتابة عن تأزم الذات، صراع جدلي بين الأنا المتمردة الثائرة والآخر، تقوم الرواية على تناوب في السرد بين شخصيتين، الأولى هي "سلطانة مجاهد" ابنة عين النخلة، المنفية المحملة بحقد على المجتمع والتقاليد، في المقابل الشخصية الثانية هو "فانسان" من أصل فرنسي، الذي عاد للحياة بفضل زراعة كلية له من جنس آخر، ومن عرق مختلف، فسافر إلى الجزائر بحثاً عن الجنس الآخر.

تبدأ الرواية بوصول الطائرة إلى مطار طمار وبعودة سلطنة إلى الجزائر بسبب اتصال هاتفى يحمل نبأ وفاة صديقها ياسين، فتعود بها الذكريات لتسترجع طفولتها وحنينها إلى الصحراء، ومع وصولها إلى الجزائر تركب السيارة، فيزعجها طفل السائق بأسئلته التي لم تتوقف، تحضر سلطنة جنازة ياسين وتتقدم الموكب الجنائزى، تعيش بعد ذلك في بيت صديقها، وتشتغل في منصبه بعد صار شاغرا بأمر من رئيس البلدية الذي ينتمي إلى جماعة الفيس، تسرد الكاتبة تفاصيل طفولتها ومراهقتها، تسترجع ذكريات الماضي والقصر، ووالديها، وتعيد اكتشاف عقليات الناس.

أما فانسان فتبدأ قصته من اليوم الثالث في الجزائر وسماعة لأذان الفجر الذي بات يزعجه، يتفاجأ بعدم وجود الآخر الذي جاء للبحث عنه، النساء لا يكدن يظهرهن في عين النخلة، ليغادر الفندق باتجاه الكتيب فيلتقي بطفلة صغيرة -دليلة- حاملة، ناضجة

بأفكارها، ويدورُ الحديث بينهما حول (ياسين) الطَّيِّب، وتشاء الصُّدفة أن يلتقي "بسلطانة مجاهد" فيعجب بها ويقعفيحها، غير أنه يكتشف أنَّ شخصًا آخر يحبها.

5- الأنا المهمشة في فضاء الذات:

إن الحديث عن المركز والهامش حديث عن ثنائيّة عرفت تعقيدا ودراسات مختلفة حتى بات الامساك مفهوم محدد لهما أمرا صعبا يكتنفه غموض وضبابية، "وبقدر اقتران الهامشي بخطاب السرد في التراث العربي فقد اقترن بالغيري في تجلياته المختلفة سواء كان هذا الغير امرأة في مجتمع تهيمن عليه قيم الذكورة، أو كان عجمًا في مقابل العروبة ؛.....أي أن الهامشية أضحت ملمحا للاختلاف"⁵، وقد عانت سلطنة بطلة الممنوعة التهميش من قبل الجنس الآخر (الرجل) ومن المجتمع الصحراوي عامة، حالها حال النساء في قرية عين النخلة وفق تقاليد مجتمع محافظ على طابعه وخصوصيته الثقافية.

لقد فرض المجتمع مجموعة من الضوابط والعادات التي تسطر حياة المرأة وفق بنود خاصة تهيمشها، فهي محرومة من حقوقها بسبب أنها أنثى أو جنس له غير مواصفات الرجل البدنية والبيولوجية، حتى أن الوسط العائلي ينبذ من هي أنثى ويرأها نقمةً، وأن المرأة تحاسب على كل أخطائها، أما الرجل فغير معني بالأمر، ويبدأ التهميش للمرأة من العائلة مثل ما حدث مع أم سلطانة، فقد توفيت بسبب إشاعات لُقِّقت لها، وكذا دليلة الطفلة الصَّغيرة تكره الرجال لكن أمها توصيها بطاعة إخوتها مع أنها ناقمة على الحياة التي تعيشها بسبب هذا الاحتكار والظلم الذي تعانيه وتعتبره عذابا فتقول: «إن جهنم نعيشه الآن في كل يوم»⁶ بسبب الوضع المأزِم.

أما بالنسبة لسلطانة فما زاد من تهيمشها هو سوء معاملتها، والألفاظ التي كانت تلقب بها منذ طفولتها.

تقول: "ارتجفت... أكثر من صورة الشارع المؤسفة أكثر من رؤية الصَّحراء فإن هذه الكلمة تغرس الجزائر في نفسي مثل خنجر ...، كم مرة أثناء فترة المراهقة وأنا مازلت عذراء،

ولكنني جريحة تلقيت هذه الكلمة كقيء على براءتي...يمين زور لفترة طويلة»⁷، فقد أصبحت الجزائر بالنسبة لسلطانة جرحا عميقا تسبب فيه سوء معاملتها ونبذها وتلقيها بألفاظ قبيحة مستنكرة إياها، ونفيت بسبب ادعاءات كاذبة وجهت لأمرها، حتى أضحت الجزائر بالنسبة لها ناقوس خطر وخوف يقتضي أثرها لقولها: «شعرت فجأة بجوع كبير للحياة...شيئا فشيئا، أضحت تهديدات وممنوعات الجزائر تحدث في نفسي هلعا لا مثيل له، لذلك هربت من كل شيء، هرب غير معقول، حين أحسست بزوغ كوابيس أخرى»⁸، صراع داخلي بين الجزائر وبين قيودها بات يلاحقها.

في مجتمع تحكمه التقاليد والأعراف المرأة لا يحق لها أن تتكلم أو تكون حرة فهي تابعة للآخر، ففي حوار جمع الفتاة الصغيرة "دليلة" بسلطانة" تقول لها: «لا، العيب مع التقاليد تهدد البنات فقط، إذ لم تخضع الفتاة تسقط وجه إخوتها وأبيها وتكسر رقيتهم»⁹، فالرجال أصبحوا رقابا مكسرة بسبب ما يمكن أن تقتطفه الفتاة بعيدا عن المحظورات الممنوعة عنها، تحاسب دوما لاعتبار الجنس (أنثى).

وتعتبر المرأة وسيلة للحب وراء أسوار الجامعة، والذنب الوحيد الذي ارتكبه أنها وقعت في فخ الحب فينتهي بها الأمر إلى التخلي من طرف الرجل الذي وعدها بالزواج ليقول أحد أولئك الشباب: «أهملنا أولئك الفتيات اللاتي كان لهن التهور، الشقاء ليقعن في حينا داخل أسوار الجامعة»¹⁰، فلا يعاقب الرجل لارتكابه الخطأ أو الخوض في الممنوعات التي تكون وصمة عار إذا ما خاضت فيها المرأة، فتختصر قيمة الذات الأنثوية في بكرتها، وإذا ما تجاوزت الأعراف والتقاليد فهي تقع في المحذور.

6- تمرد الذات الأنثوية:

لعل أول ما يطلعننا في الرواية هو العنوان كعتبة تتصدر النص، وعلامة سيميائية مشفرة نحاول استنطاقها، كون العنوان يبني جسور تواصل مع باقي العناصر المكونة للعمل الابداعي، فنحتاج آليات تحليلية واجرائية ومجموعة من التصورات والتأويلات لما

يحويه العنوان من مخزون دلالي يختصر مجمل الدلالة النصية، فضلا عما يحيله إلى ما هو خارج النص.

إن قراءة عنوان الرواية (الممنوعة) مكون من كلمة معرفة مشتقة من الفعل (مَنَعَ) والتي تعني المحرم والغير مباح، والعنوان يحيل إلى جنس الأنثى، لذا يتبادر إلى ذهن القارئ منع الأنثى وتقييدها، فيكون طرفان طرف مانع وطرف ممنوع، وهنا نتساءل من هو المانع؟ ما يفتح باب التساؤلات أهو شخص؟ أم جماعة؟ فيشحن العنوان بزخم من الدلالات والاشارات، وهو ما يتضح من خلال قراءة الرواية، فالكاتبة في روايتها "الممنوعة" تمرّدت على كل التقاليد والأعراف في المجتمع الصّحراوي، أو الجزائري بصفة عامة، كاسرة حاجز الصّمت والتّهميش المطبق ضد المرأة، منتقمة بتمردها من المجتمع، ومن نفسها، كما استحضرت قضيّة الإرهاب في فترة العشرية السّوداء و«خاضت في الكتابة عن الأزمة التي ضربت عمق البلاد وأهلكت الزرع والحراث، والعباد بأسلوب الرد على الآخر-الجماعات الإسلامية-التي تتسبب في محنة الوطن»¹¹، لذلك «يكتسي تمرد الذات الأنثوية هنا أبعادا اجتماعية ضد التّقاليد، وأبعاد سياسية ضد ممثلي الجبهة الإسلامية للإنقاذ، ويتخذ التمرد على الممنوعات من الحرية صيغة الرّفّض والتّحدي والسخرية والصّمت والاختراق»¹²، وهو كسر للحواجز التي وضعت لها.

كان أول تحدي قامت به سلطانه هو دُخولها للمدرسة تقول: «في وهران تعلمتُ الصُّراخ، في وهران كنتُ اغتاط دائما كي أواجه الهجمات لكن غفلة المدن الكبرى قللت من غضبي وجعلت ردّات فعلي معتدلة النفي لينني»¹³، فالمنفى قلل من غضبها، وكانت تتحدي الرجال بصراخها وتمردها، كما أنها رفضت الإقصاء والتهميش الذي تعاني منه المرأة في عين النخلة، والذي طالها منذ كانت طفلة، إلا أن موقفها ظلمعاد للآخر تتمرد وتبيع لأهوائها كل محرم وممنوع، وتكسر الأعراف والطّقوس الدينية، فأثناء عودتها من فرنسا لحضور جنازة صديقها أرادت أن تمشي معهم في الموكب الجنائزي رغم أنهم أخبروها بعدم قدرتها على ذلك لقولهم: «لن يسمحوا لك بحضور مراسيم الدّفن تعرفين بأن النّساء لا يدخلن

للمقبرة لحظة الدفن، سئى جيداً من باستطاعته أن يمنعني من الدخول»¹⁴، لكنها الذات الأنثوية التي لا تعرف لغة الخضوع، لذا تبيح لنفسها كل ما هو محظور غير مبالية بما هو مناقض للتقاليد ولا الأعراف ولا القيم والمبادئ التي يقوم عليها المجتمع، فتذهب إلى المقبرة وينزعج منها رئيس البلدية الذي هو من جماعة الفيس والجمعة الإسلامية، في مقطع سردي يوضح ذلك

«رئيس البلدية همس لخالد لا تستطيعين المجيء ممنوع

- شذني صالح من الذراع

- ممنوع! ومن منعه؟

- لا تستطيع المجيء، الله يحرم ذلك!

- ليس كفراً أكبر من كفرك»¹⁵

تردُّ سلطنة على رئيس البلدية ويطغى تمرداً بتجاهل كلامه، وحضورها للدفن، ولم تكتف بالحضور بل كانت تتقدم الموكب الجنائزي في مواجهة صارخة لكل الأعين التي كانت تكاد أن تلتهمها.

تصف لنا الساردة سلطانه وقد تشبعت بقيم المجتمع الغربي عندما تنتهك المحرمات، حيث تظهر في عدة أحداث وهي تشرب الخمر في مجتمع صحراوي مسلم كان قد حرم على المرأة قبل الرجل شربها، لكنها لا تأبه لكل تلك الأفعال التي يمكن أن تحد من حريتها، حيث تقول "عندي قارورة ويسكي في حقيبتي"¹⁶، وهي بذلك تشهر تمرداً تتبنيها غريبة دون قيود أو شروط.

لقد كانت بطلة الرواية تخوض في كل الممنوعات كاسرة بذلك كل الحواجز التي ترى أنها تأسر الفتاة وتكبلها، ففي موقف آخر نجدها مساويةً نفسها بالرجل في عدة أمور كاللّذين حيث تطلب سيجارة بقولها: «ناولني سيجارة من فضلك»¹⁷، ولم يقف تمرداً حدود شرب الخمر والتدخين بل أباحت لنفسها النوم مع رجل أجنبي تحت سقف واحد

دون رابط قدسي ممثل في الزواج، والذي هو من المحرمات، مستعملة أسلوب الاعتراف في سردها لتلك الأفعال التي تقوم بها قائلة: «فجأة تبادرت إلى ذهني لا مشروعية وضعنا رجلًا وامرأة، أجنبيان تحت سقف واحد»¹⁸، وهي تدرك أن التمرد ليس رغبة بالحرية بل هو مخالف تمامًا لها، إنها تراه انتقامًا من الآخر الذي سبب تمردًا بسبب إشاعات باطلة، «إن التمرد ضد الظلم شيء، والرغبة الحقيقية في الحرية شيء آخر تمامًا، يتطلب خطوة أكثر بكثير»¹⁹، لتختتم مليكة مقدم روايتها بتمرد الأنثى على المجتمع الذكوري وتتحداه وتصارع من أجل البقاء، فتحرق النساء مقر البلدية انتقامًا من الجماعة الإسلامية التي أحرقت منزل ياسين انتقامًا من سلطانه.

7- جدل الأنا والآخر في الرواية

إن العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة متشابكة، تجاذب وتنافر، ولعل من أبرز الصور التي جسدت الصراع المتبادل بين الأنا والآخر الصورة التي رسمتها مليكة من خلال ألوان ياسين في لوحته التي عبّرت عن تجاوز المرأة الخطوط الحمراء تقول سلطانة: «رأيت اللوحة الجدارية بحر من النيران، بحر مضطرب، في المكان الذي تشتعل فيه النيران، ينبعث منه القليل من الدخان السماء مسدودة، امرأة من الظهر، تمشي على النيران، سليمة الجسم، تركت وراءها محررًا أبيض ومسطحًا، مثل طريق مسطر في لهيب النار، لا نميز منها إلا شبحًا مثل الظل الصيني ومدخنا»²⁰، لقد عبرت اللوحة بتفاصيلها وألوانها عن المرأة التي تسير وسط حشد من الجنس الآخر سليمة الجسم غير مبالية بنيران الغضب المتأجج حولها، غير مبالية بتلك النظرات الساحقة، رغم «أن المجتمع العربي هو مجتمع تقليدي تحكمه علاقات الأبوية التقليدية من العصبية العشائرية والولاءات الطائفية، تسير على الفرد وتقمعه وتخضع المرأة وتحرقها حيث يسبح النظام الأبوي المرأة بمحرمات كثيرة يضعها تحت رقابة الرجل الذي يعد عليها أنفاسها، ويحتجز حرّيتها خوفًا على شرف القبيلة»²¹ الذي هو من شرف الأنثى.

كما يظهر القهر الذي يمارسه الرَّجل ضد المرأة في المجتمع الجزائري بأن يتزوج البنت وما إن ينتهي الطُّبل من القرع حتى يتركها ويذهب للحانات بحثاً عن ملاذ آخر وهروباً من فتاة تزوجها برغبة من العائلة والمجتمع الذي فرض عليه ذلك لذا يقول أحد الشباب: «نحن فتيان الخيم الكبري، برجولة مزدانة بياس المهملات، ارتدينا برنوس التقاليد لنذوق العذاري الجاهلات اللائي اختارتهن عائلاتنا، ولكن بمجرد سكوت طبول العرس تظهر لنا زوجاتنا الفتيات ساذجات وبلا طعم عندئذ نهرب من بيوتنا نتردد على الحانات يصيبنا وسواس الخيانة»²²، وبحجة الزواج التقليدي يبرر الآخر لنفسه المحرمات، والذهاب للحانات، وممارسة الخيانة ضد الزوجة وكأنها حقوق وجب ممارستها لذا يقول: «من حقل أن تتمتع ألسنت رجلا؟»²³. سؤال يقصي المرأة من هذا الحق، فالعادات البالية تبيح المحظورات للرجال وتمنعها عن النساء.

ظَلَّت النظرة المفترسة تكادُ تلهم المرأة التي تحرَّرت من تلك التقاليد لذا تقول سلطانة مستنكرة لها: «أزعجتني هذه المضايقة حجبت عني الصَّحراء حوَّلت بصري عن الرَّجل الآن أعتقد أنَّي أعرفه، واحدة من تلك التكشيرات الَّتِي كانت ترسم على وجوه الحشد التي كانت تطاردني باستمرار»²⁴، وتبقي النَّظرات الذكورية المتغطرسة تخترقها منذ ركبت السيارة التي أرادت أن تقلها إلى عين النخلة دليلٌ على التعطش للجنس الآخر، «رجال واقفون ومقرضون على طول البناية يتفرسون في»²⁵، حتى الأطفال صورت بأنهم يعانون من طفولة مريضةٍ منحلة وعدائية ضد الجنس الآخر، فلم تكن السنوات التي قضتها خارج البلد كفيلةً بهذيبهم لذلك تقول: «لم أنس أن أطفال بلادي يملكون طفولة مريضة منحلة، لم أنس أصواتهم الشَّفاقة التي لا ترن إلا بأغلظ الفواحش، لم أنس وأنهم منذ الطفولة المبكرة لا يكتسي الجنس الآخر في رغباتهم إلا صورة شبح مبهم يهددهم»²⁶، إلا أنها رغم التحديات التي تنغص عيشتها أطلقت العنان لتمرد لها فهي تمشي في الشَّارع بين الأعين المفترسة متحدية متمردة في حين «يفرض الشارع تفضيله للذكور شاعرا عنصريته

الصَّارخة تجاه الإناث، إنه حامل بكل المكبوتات منخورٌ بكل الحماقات، ملوث بكل الشَّقاءات»²⁷، مجتمع أبوي ساخط على المرأة.

تقول الطفلة ليلي وهي تصف والدها وشعوره تجاه أختها: «أبي لا يعرف الكتابة، ثم أنه يتشاجر معها، لا يعرف أن يبعث لها إلا اللَّعنات إخوتي أيضا تشاجروا معها»²⁸، وأن المرأة وجدت كآلة تشتغل بدون ملل، تجرد من قيمتها الانسانية ومن حقها في الكلام لذلك تقول: «يقولون لي دائما: لا تخرجي اشتعلي مع أملك! أعطي لي نشرب حليب! جيبيليلياصباطي! حددلي سروالي! حطي عينيك حينما أكلمك زيد وزيد واضرب في سبعة لا يعرفون إلا إعطاء الأوامر أحيانا يضربونني»²⁹، وهي ترفض أن تكون خاضعة لسلطة الآخر الذي أباح لنفسه الوصاية عليها واستغلالها بما ينفعه، إن ليلي تحمل أفكارا تحريرية تريد أن تتخلص من جحيم العائلة التي يطغى عليها حكم أبوي متسلط.

تعتبر دليلة عن كرهها للتقاليد حتى أنها باتت ضد البنات جنسها، وأن المرأة خاضعة لأوامر الرِّجل وتسلُّطه وليس لها حق الكلام كما هو الحال مع إخوتها، فتتمرّد الطفلة دليلة حينما تتحدّى بنظراتها الرِّجال ثم تسافر إلى أحلامها تقول: «أنا لا اشعر بالعيب، امتلئ بغضب له مخالب لا انظر إلى الأرض، أنظر إلى النَّاس في عيونهم، وحينما أسأم من عيونهم المتعقِّنة، آتي هنا وأنظر إلى الأحلام كي أنظف عيني أنا»³⁰ تجعل "مليكة مقدم" من دليلة صورة مصغرة لسلطانة بتمردها عن كل القيم.

8- التقاطبات المكانية بين الأنا والآخر

المكان ذا أهمية كبيرة في الرواية، فهو فضاء تحرك الشَّخصيات وتطور فيه الأحداث، وهو مرآة تعكس حالات الشخصيات وأفكارها ومعتقداتها، فيما أنه قد ينعكس سلبيًا أو إيجابًا علي تلك الشَّخصيات، ففي رواية "الممنوعة" يتوزع فضاء الرواية عبر عدة أماكن لعل أبرزها صحراء الجزائر وفرنسا التي كانت بالنسبة لسلطانة الملاذ الذي سيحقق لها حريتها بعد التهديدات التي صارت تلاحقها من قبل الأصوليين، فقد كان الابتعاد عن الوطن

والملاذ الذي تعيد البطلة فيه ترتب أولوياتها، وتتحصن عن عدوها، وتبتعد عن المضايقات التي لحقتها اجتماعيا ونفسيا.

لقد كشفت الكاتبة عن الوجه الحقيقي للصحراء بعيون كاتبة فرت من جحيم الارهاب، فلم تعد تلك الصحراء التي تغنى بها الرحالة، لم تكن صورتها كواجهة للجمال والسيّاحة بقدر ما كانت ماضٍ بائس وخوف من مستقبل يطاردها، حيث تقول: «يمنح الحاضر والماضي والمستقبل في فضاء الصحراء دينامية مختلفة كثيرا ما تتعارض أو تتداخل، ألحقت الصحراء والحزن الشديد إلى جسدي المهجر وبقيت مجزأة بينهما»³¹، لتبرز الهوية المتأزمة للبطلة بين المنفى والصحراء محاولة البحث عن ملجأ يحويها، فلا هي جزائرية، ولا هي فرنسية، كطائر يبحث عن وكر يختبئ فيه تقول الساردة: «إنها تذكرات، هُلسات، ولّدها التقاء الرياحين الشياطين إنها تذكرات مهمة، رفسة الماضي في الصحراء الحاضر، غداً سوف لن يبقى منها شيء، غداستدفن الريح الرملية مخاوف الطفولة والمراهقة، غدا ستكون ربح الشمال جنوبي»³²، تحاول الساردة إيجاد وطنها الذي ضاع منها تبحث فيه عن طفولتها، فالمنفى بات يلاحقها «المنفى رحيل في الجغرافيا، والزمن وذاكرة الذات والمحيط، وعيش على إيقاع الخوف والفقْدان، ومجازة للظاهر الذي ألفتته العين واستوطن خلايا الذهن إلى البعيد الغامض والموحش»³³، لتصبح الصحراء بالنسبة لها الملاذ، «الحرية، الهروب، الالتقاء مع الذات»³⁴، إن المكان الذي يحمل المفارقات والتناقضات بات يشكل منفي الذات يجعلها غير قادرة على الانصهار في محيط الآخر، ولا التخلص من الماضي، لذا تعاني حالة من التشظي ولا استقرار ويظل هاجس الماضي يؤرق الذات وتصيبه قشعريرة الحنين إلى الوطن من حين لآخر.

لقد جعلها عودتها إلى الجزائر تعاني التمزق الداخلي والتهيه لذا تقول: "لم أكن أتصور أبدا بأنني أستطيع العودة يوما إلى هذه المنطقة ومع ذلك لم أبتعد عنها بشكل نهائي أبدا كل ما فعلته هو أنني ألحقت الصحراء والحزن الشديد إلى جسدي المهجروبقيت مجزأة بينهما" ³⁵،

إنه احساس بالتغيب حتى صارت الأماكن ملاجئ مؤقتة في نظرها تلقي بظلالها على نفسها فاقدة للألفة.

وظفت مليكة مقدم عدة أماكن ((وهران، منبولي، الصحراء)) مازجة فيها الواقعي بالمتخيل باعتبار أنَّ الأديب « يرسم حيزا إن شاء أن يكون ضخما ضخمه وإن شاء أن يكون ممردا مرده »³⁶، كما رصدت الكاتبة المتغيرات التي حدثت بعد الاستقلال إذ تظهر البطلة مثقلة بالشروخ والتداعيات الخطيرة التي خلفتها الأزمة -العشرية السوداء- من عدة جوانب: سياسية، واجتماعية، وثقافية، وبخاصة الأحزاب الدينية التي سيطرت في تلك الفترة فأصبحت حتى في المدارس تطبيق الأحكام السيَّاسية الدينية، «تقول وردة بأن المدرسة لم تعد فضاء للمعرفة تقول بأنَّها أصبحت الآن ورشة للبلهاء والإسلاميين الصِّغار إسلاميون بلهاء مثل إخوتي»³⁷، حتي المدرسة بانت ذات طابع سيَّاسي ديني لا يبني بل يحطم الأجيال وهو مقطع سردي يعكس موقف الكاتبة من الاسلاميين ونعتهم بأسوأ الألقاب.

تحسم البطلة أمرها بأن ندمت على عودتها إلى الوطن، وأنها لن تعود مرة أخرى، وترى لا جدوى من العودة لأنها ستسترجع الطفلة التي بداخلها ومثيلاتها من الأطفال الذين يعانون الظلم والقهر، إنها بعودتها ستعاني الاقصاء والتمهيش الذي عانت منه من قبل، لذا تنفر من المكان بعد أن أصبح فضاء معادي لها، فهو يحمل معه دلالات الألم والحزن وينبش في ذاكرتها الحزن لذا تقول: "كان الأجدر بي ألا أزور ثانية هذه الأماكن التي أصبحت تنتهي إلى الماضي، لأن الطفلة الصغيرة التي تعيش بذاكرتي هي دائما حاضرة مع ظلال الأطفال الآخرين الذين يشاركونها المصير المأساوي"³⁸، مثل حال الطفلة دليلة التي التقت بها وجعلتها تستحضر طفولتها من خلالها، فالوضع لم يتغير رغم كل تلك السنوات التي ابتعدت فيها عن المكان وعن العادات والتقاليد وعن شرنقة السلطة الذكورية، لقد كانت تظن أنها تجد الحرية التي تأملها لكنها لم ولن تجدها.

حتى المنفى الذي احتمت به لتجد فيه الأمن والاستقرار والألفة لم يكن كفيلاً بترميم تلك الجراح فقد كانت تعاني منه هو الآخر لذا أرادت أن تجد لنفسها مكاناً يحترم الذات الأنثوية دون أي تمييز ودون أي قيود تقول: "الذهاب مرة أخرى؟ مغادرة فرنسا والجزائر معاً؟ نقل الذاكرة المضخمة من قبل المنفى إلى مكان آخر؟ محاولة العثور على مكان بلا جذور، بلا عنصرية، بلا معاداة للأجانب، بلا مغامرات وخيمة العواقب؟.. بعد أن نرحل المرة الأولى تصبح كل الاقامات الأخرى ملاجئ مؤقتة، المكان الآخر ليس علاجاً أبداً"³⁹، والهروب هو الآخر ليس علاجاً أبداً، فتظل البطلة وهي تحاول أن تجد نفسها التي ضاعت بين فضاء الذات والآخر، وبين سلطة الذكور من جهة و سلطة مسيح بالعادات والتقاليد من جهة أخرى.

9- خاتمة

تناولت رواية الممنوعة للمليكة مقدم موضوعاً متميزاً في السرد النسائي وهو صراع الأنا والآخر، كشفت خلاله النقاب عن المعاناة والتهميش والقهر والإقصاء التي عانتها المرأة، ورصدت أبرز قضايا وأفكار المرأة، خاصة في فترة حرجية من تاريخ الجزائر ألا وهي فترة العشرية السوداء، في فضاء مكاني تعرف تفاصيله وتعرف عاداته وتقاليدته، في مجتمع لا تكون فيه المرأة متحررة بل تابعة للرجل تحت امرته وسلطته، إضافة إلى تسلط المجتمع الذكوري بصفة عامة، والضغط السياسي والاجتماعي والجهة الإسلامية، ولعل ارتباط موضوعها بمسألة التحرر نتج عن إقامتها في فرنسا والتأثر بالمجتمع الغربي، قدّمت هذه الرواية لنقل هذا الواقع الممزوج بالمتخيل، ورفع راية التمرد وإباحة الممنوع وكسر قيد الأنوثة المسلوقة والمقهورة، كما عالجت عدة قضايا في الرواية كزنا المحارم والشرف، وصراع الأنا والآخر سعياً منها لتغيير الثقافة السائدة، حيث جعلت من فضاء الصحراء مسرحاً لشخصيتها باعتبار الصحراء موطنها، وهناك تقبع التقاليد والأعراف التي تمقتها، فحطمت بهذه الرواية التابوهات في تغلغلها في الثالوث (السياسة والدين والجنس).

*** **

الهوامش

¹ خليل سليمة، الأدب النسوي بين المركزية والتميش، مجلة مقاليد، جامعة بسكرة، العدد الثاني، ديسمبر،

2011، ص 115

² زعينة علي - مفقودة صالح - عالية علي، السرد النسائي في الادب الجزائري المعاصر، مجلة المخبر، أبحاث في

اللغة والأدب الجزائري، قسم الأدب العربي، جامعة محمد خيضر، بسكرة، العدد الأول، ص 18

³ الكبير الداديسي، أزمة الجنس في الرواية العربية بنون النسوة، مؤسسة الرحاب الجديدة للطبع والنشر، ب

ط، لبنان، ب ت، ص 183

⁴ عبد الغني عماد، جينا لوجيا الآخر المسلم وتمثلاته في الاستشراق والأنثروبولوجيا والسياسيولوجيا، مركز

دراسات الوحدة العربية، ط 1 بيروت، 2020م، ص 11

⁵ شرف الدين ماجدولين، الفتنة والآخر - أنساق الغيرية في السرد العربي - الدار العربية للعلوم ناشرون،

ط 1 الجزائر، 2012م، ص 66

⁶ مليكة مقدم، الممنوعة، ص 38

⁷ المصدر نفسه، ص 12

⁸ المصدر نفسه، ص 47

⁹ المصدر نفسه، ص 151-152

¹⁰ المصدر نفسه، ص 52

¹¹ حنفاوي بعلي، الرواية النسوية الجزائرية - تأنيث الكتابة وتأنيث بها المتخيل - دار البازوري العلمية للنشر

والتوزيع، ب طعمان، 2015، ص 54

¹² سامية إدريس، تمثيل الصراع الرمزي في الرواية الجزائرية - دراسة في علم اجتماع النص الأدبي - منشورات

الاختلاف ط 1، الجزائر، 2015م، ص 137

¹³ مليكة مقدم، الممنوعة، ص 14

¹⁴ المصدر نفسه، ص 19

¹⁵ المصدر نفسه، ص 22

¹⁶ المصدر نفسه، ص 51

¹⁷ المصدر نفسه، ص 54

¹⁸ المصدر نفسه، ص 55

¹⁹ المصدر نفسه، ص 181

²⁰ المصدر نفسه، ص 48

²¹ سامية إدريس، تمثيل الصراع الرمزي في الرواية الجزائرية، ص 138

²² مليكة مقدم، الممنوعة، ص 52

²³ المصدر نفسه، ص 148

²⁴ المصدر نفسه، ص 10

- ²⁵المصدر نفسه، ص15
- ²⁶المصدر نفسه، ص12
- ²⁷المصدر نفسه، ص11
- ²⁸ص المصدر نفسه، 34
- ²⁹المصدر نفسه، ص36
- ³⁰المصدر نفسه، ص152
- ³¹المصدر نفسه، ص7
- ³²المصدر نفسه، ص9
- ³³شرف الدين ماجدولين ، الفتنة والأخرانساق الغيرية في السرد العربي، ص113.
- ³⁴مليكة مقدم، الممنوعة، ص130.
- ³⁵المصدر نفسه، ص7
- ³⁶عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد ، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ، 1998، ص134
- ³⁷مليكة مقدم، الممنوعة ص93
- ³⁸المصدر نفسه، ص24
- ³⁹المصدر نفسه، ص84